بصورة مطلقة سائرا بذلك على منهج اللغويين ممن كثرت شروطهم حول فن الشعر ، وتنافسوا فى مؤاخذاتهم للشعراء المحدثين على ما شغلوا به من عناصر التجديد ، وبذا ضيَّقوا أمامهم مجالات الابتكار إلا من خلال أُطُر إبداع القدماء ، الأمر الذى انتهى ببعضهم إلى إلزام الشاعر بنفس الحدود التى دار فيها القديم ، وحكمت فى إطارها فنونه ، وكأن الناقد لم يبق بذلك للشاعر من فنه وقدراته إلا مجرد اختيار اللفظ ، وحسن الصياغة ، وجودة النسق لإبراز المهارات الفردية المتميزة التى يحاول بواسطتها النفاذ إلى اللغة باعتبارها وعاء اجتماعيا له أطره العامة قبل قياسات التفرد على المستوى الخاص .

ومما يلفت النظر ويستوقف الناقد حول أصالة ذلك البعد التراثى وعمقه تلك المواقف التى رصدها التاريخ الأدبى قبل التقعيد بكثير ، وقبل التوقف عند القواعد الموضوعية التي حاولت أن تكسب النقد قدرا من العلمية والموضوعية ، فمن لدن الجاهلية تلقانا تلك المواقف الانطباعية للشعراء ، وهذه لانعدها نقدا يعتد به ، بقدر ما نعدها لمحاً خاطفاً أحس أهله قداسة الموروث ، وسعوا إلى إثبات ولائهم المطلق له ، وكأن الشاعر كان يعانى حرجا شديدا إذا ما نظم ، دون أن يستند موقفه الإبداعى إلى أصل قديم ،فلم يشأ أن يبدأ من فراغ على نحو ما صنع امرؤ القيس حين أكد أنه لا يناجى الطلل باكيا أو مستبكيا ، أو واقفا أو مستوقفا إلا بإيحاء مما سبقه إليه ابن خذام فى قوله :

عُوجا على الطلل المحيل لأننـــا نبكى الديار كما بكي ابن خـذام[1]

وعلى ما فى الموقف من بساطة الأداء ، ووضوح التصوير كان ينطلق كذلك كعب بن زهير مؤكدا مكانة سلفه ممن تتلمذ عليهم ،و ولعله قصد إلى إبراز دور أبيه فى تكوينه الفنى ، منذ انتهى إلى مدرسته من لدن أوس بن حجر والطفيل الغنوى فإذا به يردد غير وجل :

ما أرانا نقول إلا معـــــارا أو معادا من لفظنا مكـــرورا[2]

وربما كان أدق من هذا كله فى بيان ضرورة استمرارية خيوط التراث ماتوقف عنده أصحاب التجديد الذين رفعوا ألوية التمرد ، وعلت لديهم أصوات الرفض للقديم ، وكأن بينهم وبين السلف ثأرا لا يهدأون إلا بأخذه عن طريق النيل من التراث ، ولكننا لانجد حتي عند أشد الشعراء تمردا استجابة صادقة لصوته الرافض ، الأمر الذى نفصل فيه بتحديد عمر الحركة بعد

(١) ديوان امرئ القيس ٧٤ .
(٢) ديوان كعب بن زهير ١٥٤ .